(٥)

الوثن الثانى: شيوع ثقافة التخلف وغياب الثقافة العلمية

إن مجتمعنا يئن تحت وطأة شيوع ثقافة التخلف بكل قيمها السلبية، فأفراده فى معظمهم يعيشون صباح ـ مساء ثقافة «الأنا مالية» واللامبالاة، الوصولية والمحسوبية، الرشاوى والفساد المالى والإدارى بكل صوره، وهذه القيم السلبية هى نتيجة طبيعية لمجتمع غاب عن أفراده عناصر الثقافة العلمية التى هى أساس ما أسميه دائمًا «ثقافة التقدم» تلك الثقافة التى تكسب أفرادها الموضوعية فى القول والفعل، تحكيم العقل فى كل ما يصدر عنهم من أحكام ومواقف، الشفافية فى الإعلان عن الرأى وفى كل ما يصدر عنهم من أقوال وأفعال، التخطيط العلمى الجيد لكل جوانب الحياة عملية كانت أو علمية، الإدارة بالأهداف التى تعنى تفعيل التخطيط العلمى فى مجال الإدارة، فلا يدير أحدهم مصنعًا أو حتى مؤسسة علمية، أو تربوية أو غير هذه وتلك إلا فى ضوء خطة عمل تحدد أهدافًا بعيدة وقريبة المدى وتحدد آليات دقيقة لتحقيق هذه الأهداف بصورة ترضى عنها معايير الأداء الجيد والمنتج الذى تتوفر فيه كل مواصفات الجودة والإتقان.

ويخطئ من يظن أن مناشدتنا الآن بضرورة التحول من ثقافة التخلف بقيمها السلبية إلى ثقافة الجودة والتقدم بقيمها الإيجابية الفعالة، هو حديث وليد اللحظة، أو هو جديد على مجتمعنا تأثرًا بالنزعة السائدة الآن فى كل أنحاء العالم النامى بضرورة تطبيق معايير الجودة حتى نضمن الاعتماد لمنتجاتنا فى كل مجالات الحياة! فالحقيقة أن المجتمع المصرى فى كل فترات ازدهاره كانت تسود بين أفراده الثقافة العلمية بقيمها الداعية إلى التقدم والإتقان؛ وليس أدل على ذلك من النظر إلى تاريخ المجتمع المصرى منذ التاريخ المصرى القديم؛ فقد وضع الإنسان المصرى القديم العلماء فى أعلى مكانة باعتبارهم صناع التقدم؛ فهذا هو أخناتون الملك المصرى الذى حكم مصر فى حوالى القرن الرابع عشر قبل الميلاد يقول فى برديانه التى اكتشفت فى تل العمارنة: «إن العلم هو أول أركان الإيمان بالخالق، لقنه الله للإنسان بالخط والقلم، وعن طريق المعرفة بالقراءة والكتابة يتفتح عقل الإنسان لتقبل علوم المعرفة المقدسة و ينفتح قلبه للإيمان بالخالق» كما يقول أيضًا: «إذا أردت أن تورث ابنك ميراثًا لا يفنى فورثه العلم، فالعلم هو الثروة التى تزداد كلما أخذت منها، ولا تورثه المال، فالمال هو الثروة التى تنقص كلما أخذ منها».

و لتقارن ما يقوله أخناتون منذ ذلك الأمد القديم بما كان يفعله حكام العالم الإسلامى حينما كانوا يزنون الكتب العلمية المترجمة إلى العربية ذهبًا ويعطوه لمن ترجمها ولو كان أعجميًا غير مسلم! ولتقارن بعد ذلك هذا وذاك بما نراه فى مجتمعنا المصرى الآن من تدنى لمكانة العلماء والعلم، ومن تفشى ظواهر الخرافة والعرافة، ومن تدنى لمكانة اللغة القومية فى نظر أبنائها لدرجة إحجامهم الآن عن تعلمها وجعلها فى المرتبة الثانية فى

تعليم العلوم. إن كل ذلك يعد فى اعتقادى من مظاهر ثقافة التخلف التى يعانى منها مجتمعنا دون إرادة من معظم أفراده وهم الغالبية، لأن المسئول الأول عن شيوع ثقافة التخلف وتدنى مكانة العلم والعلماء ومكانة اللغة العربية القومية إنما هم «النخبة» فى هذا المجتمع سواء كانوا النخبة المثقفة أو النخبة العلمية أو النخبة السياسية فهم جميعًا مسئولون عن هذا التدنى لمكانة الكاتب والعالم والمثقف.. الخ، مسئولون عن شيوع ثقافة التخلف بين أهلهم لأنهم لم يحرصوا على الحفاظ على كرامة الفكر والعلم والأدب الرفيع ممثلًا فى أشخاصهم، كما لم يدركوا أهمية أن ينقلوا العلوم التى تعلموها بأى لغة حديثة كانت إلى لغتهم حتى يشيع العلم وثقافته بين تلاميذهم وذويهم.

إن النخبة هى المسئول الأول عن شيوع ثقافة التخلف لأنها لم تعمل منذ فترة على الأخذ بأسباب وقيم ثقافة التقدم وتناست فى غمرة البحث وتحقيق مصالحها الآنية، تناست أن المثقف والعالم والمفكر والكاتب إنما هو ضمير الأمة وهو صاحب رسالة تنويرية فى تثقيف مواطنيه وحثهم على التمسك بكل قيم التقدم العلمى، ومن نافلة القول التأكيد على أن لا تقدم علمى ولا ثقافة علمية ولا بيئة علمية مواتية لصنع الإبداع العلمى والمشاركة فى مسيرة العلم المعاصر بدون انتشار قيم الثقافة العلمية ومفرداتها ونظرياتها بين أفراد المجتمع بلغة هؤلاء الأفراد.

لقد كانت النخبة المصرية فى مطلع عهد النهضة منذ عهد محمد على وحتى قبيل قيام ثورة يوليو، ثم فى فترة الستينيات من نفس الفترة مدركة لضرورة انتشار هذه الثقافة العلمية وتشهد على ذلك البعثات التى أرسلت فى عهد محمد على وأولاده إلى أوروبا، ويشهد على ذلك

تأسيس رفاعة رافع الطهطاوى لمدرسة الألسن وقيامه هو وتلاميذه بترجمة عشرات الكتب، ويشهد على ذلك أيضًا المجلات والدوريات والكتب التى حرص المترجمون على نقلها عن كل لغات العالم الحديثة فى مختلف فروع العلم فى هذه الفترات الزاهية من عصر نهضتنا الحديثة، كما يشهد على ذلك أيضًا قانون تنظيم الجامعات المصرية الذى أكد على أن لغة التدريس هى اللغة العربية فكان على العائدين من البعثات الخارجية ترجمة المؤلفات العلمية إلى اللغة العربية ليستطيع التلاميذ والدارسين قراءة هذه العلوم باللغة العربية. ولا أدرى ما الذى حدث بعد ذلك فجعلنا ننسى كل ذلك ونتغافل عنه مستسلمين لتيارات التغريب تغزو عقول علمائنا قبل أن تغزو عقول طلابهم ومجتمعهم؟! ولا أدرى كيف تم الاستسلام لمقولة خبيثة رددها المتغربون تقول أن اللغة العربية ليست لغة علمية، وليست قادرة على استيعاب وملاحقة المفردات والاصطلاحات والتطورات العلمية الحديثة! والحقيقة أنها كانت ولا تزال لغة تتسع بكل تاريخها وإمكانياتها الذاتية ليس فقط لنقل واستيعاب العلوم الحديثة، بل للإبداع العلمى إذا ما أراد لها أصحابها ذلك! فهى كانت اللغة التى استوعبت كل العلوم القديمة إبان حركة الترجمة الكبرى فى العصر الإسلامى الزاهى، وهى اللغة التى استخدمها جابر بن حيان والحسن بن الهيثم وأبو بكر الرازى فى إبداعاتهم العلمية وعبروا بها عن مكتشفاتهم العلمية المبهرة التى بنى عليها علماء الغرب فى العصر الحديث!

أقول وأكرر أن النخبة المثقفة والعالمة هى المسئولة بالاشتراك مع النخبة السياسية ورجال الصناعة والإعلام بالتوازى، كلهم مسئولون عن إعادة اللغة العربية كلغة علم، ولغة تنتشر بها الثقافة العلمية بين

أفراد المجتمع جميعًا وليس فقط بين الباحثين العلميين. إن الثقافة العلمية أو ثقافة العلوم هى الحد الفاصل فى عالم اليوم بين المجتمعات المتقدمة والمجتمعات المتخلفة، وصدق العالم الأمريكى ايريك بولك مدير المؤسسة القومية للعلوم بالولايات المتحدة الأمريكية حينما يقول أنه «يجرى على المجتمع الإنسانى فى الوقت الحاضر تغيير جذرى فى بنيته وسوف تحسم نتيجة هذا التغيير بقدر اعتماد كل بلد على المعرفة العلمية» و لنا أن نندهش من هذا القول لعالم أمريكى فى الوقت الذى نعرف جميعًا أنه يقال فى ظل مجتمع ينفق على البحث العلمى وعلى نشر الثقافة العلمية ما لا يوازيه أى نسبة فى أى دولة أخرى فى العالم، فما بالنا نحن نترك أنفسنا نهبًا لثقافة أبعد ما تكون عن الثقافة العلمية. وما بالنا لا نطمح إلى تغيير نمط هذه الثقافة المتخلفة السائدة فى مجتمعنا وتحويلها إلى ثقافة تقدم علمى!!و قد يثور بعضنا قائلًا: أننا حاولنا ولا نزال نحاول لكن «العين بصيرة واليد قصيرة»!! والحقيقة أنه مهما كانت الإمكانيات المادية ضئيلة ومهما كانت المعوقات أمامنا كثيرة فلابد أن نمتلك إرادة جادة فى توفير هذه الإمكانيات المادية بوسائل شتى جديدة وعديدة بالإضافة إلى دعم الدولة الذى ينبغى بإرادة سياسية جادة أيضًا وفاعلة أن يتضاعف عشرات المرات ولابد أن نمتلك فى ذات الوقت خطة جادة واضحة المعالم محددة الأهداف والأدوات الدقيقة للقياس لتذليل كافة العقبات للوصول إلى تحقيق هذه الطفرة المنشودة فى صنع ثقافة العلوم واستنباتها داخل مجتمعنا حتى نجد من نفس هذا المجتمع الدعم الكامل واللامحدود لصنع بيئة وبنية علمية مواتية للإبداع العلمى والإنفاق على المبدعين العلميين بلا حدود. والحقيقة أن لدينا العديد من هذه الخطط سواء فى المؤسسات البحثية الرسمية أو حتى لدى الأفراد والكثير من

هذه الخطط يعد موضوعًا أساسيًا من موضوعات عشرات المؤلفات الفكرية والعلمية الصادرة عن كبار علمائنا ومفكرينا، لكن مجتمعنا لم يمتلك بعد الإرادة الجادة لهذا التحول نحو الثقافة العلمية، وهذه الإرادة لن تتوافر ما لم تتوافر الإرادة السياسية التى تجعل من هذا الأمر قضية حياة أو موت، قضية تلخصها العبارة الشكسبيرية الشهيرة: نكون أو لا نكون! فلم يعد فى عالمنا المعاصر مكانًا للمتخاذلين فى امتلاك ناصية التقدم العلمى والمشاركة فى صنع الحضارة العلمية المعاصرة. ولن نكون من المشاركين فيها إلا إذا تخلصنا من هذا الداء العضال الذى ينخر فى كل جوانب حياتنا، داء انتشار ثقافة التخلف البعيدة كل البعد عن أى قيمة من قيم ثقافة التقدم التى جوهرها كما قلت هو الثقافة العلمية.